

ذكر خبر هذا الخليج وحفره وأسمائه

قال المقرئى ٦: هو خليج قديم، أول من حفره طوطيس بن ماليا أحد ملوك مصر، وهو الذى قدم السيد إبراهيم عليه السلام فى أيامه إلى مصر، وأخذ منه السيدة سارة، ورأى من النعمة بسببها ما رأى، فردها مكرمة وأخدمها هاجر أم إسماعيل عليه السلام، فلما خرج إبراهيم ^(١) عليه السلام بهاجر وولدها إسماعيل إلى مكة بعثت إلى طوطيس تعرفه أنها فى مكان جذب وتستعينه، فأمر بحفر هذا الخليج متصلا إلى السويس ببحر القلزم، وبعث إليها فيه بالسفن تحمل الحنطة وغيرها إلى جدة، فأحيا بلد الحجاز.

ويقال إن الفراعنة سبعة هذا أولهم، ويقال له فرعون إبراهيم، ثم جدد حفره أندرومانوس ^(٢) أحد ملوك الروم، وسارت فيه السفن، وذلك قبل الهجرة النبوية بنيف وأربعمئة سنة، ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عمرو بن العاص لما فتح مصر أمر بتجديد حفره، فأقام فى حفره ستة أشهر، وجرت فيه السفن تحمل الميرة ٢ إلى الحجاز، فسمى خليج أمير المؤمنين، يعنى عمر بن الخطاب.

ولم تنزل تجرى فيه السفن من فسطاط مصر إلى السويس، ولم يزل النيل يصب فى

(١) فى ب، جـ: إسماعيل.

(٢) كذا بالنسخ الخطية، وفى الخطط للمقرئى: أندرويانوس.

١ الخطط (١٤١/٢).

٢ الميرة: الطعام ونحوه.

بحر القلزم، إلى أن أمر الخليفة المنصور ثاني خلفاء بنى العباس بطمه في سنة خمسين ومائة، وبقي منه ما هو موجود الآن، وصار يسمى خليج القاهرة، وخليج اللؤلؤة؛ لأنه كان عليه منظره تسمى اللؤلؤة من متنزعات الخلفاء الفاطميين، وكانت قصرا عظيما من أعظم القصور زخرفة، وكانت بالقرب من باب القنطرة، بناها العزيز بالله، وهدمها الحاكم، فأعاد ابنه الظاهر بناءها.

قال المقرئ: والعامه تسميه اليوم خليج الحاكمى، وقال ابن سعيد: قد دخلت (في الخليج الذى) ^(١) بين القاهرة ومصر، ومعظم عمارته مما يلي القاهرة، وهو ضيق، عليه في الجهتين مناظر كثيرة العمارة، وللسرج في جانبه بالليل منظر فتان، وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر بالليل.

قال: وفي ذلك أقول:

لا تركبن فى خليج مصر	إلا إذا أسدل الظلام
فقد علمت الذى عليه	من عالم كلهم طعام
صنفان للحرب قد أظلا	سلاح ما بينهم كلام
يا سيد لا تسر إليه	إلا إذا هوم النيام
والليل ستر على التصابى	عليه من فضله لثام
والسرج قد (بدت عليه) ^(٢)	منها دنانير لا ترام
وهو قد امتد والمبانى ^(٣)	عليه فى خدمة قيام
لله كم دوحة جنينا	هناك أثمارها الأنام

(١) ما بين القوسين ليس بالأصل.

(٢) جاء مكان ما بين القوسين في ب: بددت.

(٣) في الأصل: والبانى.

وقال ابن الساعاتى 1 فيه:

قف	بالخليج	فإنه	أسمى	بقاع	الأرض	ربعا
رقصت	به	الأغصان	إذ	ثنى	الحمام	عليه
منعطف	كالأديم	ذعرا	حين	ربع	ضاق	ذعرا
وإذا	تمر	به	الصبا	فاطرب	لسيف	عاد
متباريات	سفينه	خفضا	براكبه	ورفعا		
مثل	العقارب	أقبلت	فوق	الأرقام	2	وهى
تسعى						

وقال الأسعد بن ممتاى:

خليج	كالחסام	له	صقال	ولكن	فيه	للرامى
مسره						
رأيت	به	الصغار	تجيد	عوما	كأنهم	نجوم
فى	مجره					

وقال ابن عبد الحكم 3: حدثنا عبد الله بن صالح أو غيره، عن الليث بن سعد أن الناس أصابهم بالمدينة جهد شديد فى خلافة عمر عام الرمادة، فكتب إلى عمرو بن العاص يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه، فقدموا عليه. فقال عمر: يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر، وهى كثير الخير والطعام، وقد ألقى فى روعى لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم، إذا حفر خليج من نيلها حتى يسير فى البحر، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فإن حملة على الظهر يبعد ولا نبلغ فيه ما نريد، فانطلق أنت وأصحابك وتشاوروا حتى يعتدل فيه رأيكم. فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر، فثقل ذلك عليهم، وقالوا:

1 هو أبو الحسن بهاء الدين على بن محمد بن رستم، المعروف بابن الساعاتى، شاعر مشهور، خراسانى الأصل، ولد ونشأ فى دمشق، وكان أبوه يعمل الساعات بها. توفى سنة ٦٠٤ هـ.
2 الأرقام: جمع الأرقم، وهو ذكر الحيات أو أخبثها.
3 فتوح مصر وأخبارها، ص ٢٨٣.

نتخوف أن يدخل في هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن نعظم ذلك على أمير المؤمنين، ونقول: هذا أمر لا يعتدل ولا يكون ولا نجد إليه سبيلاً. فرجع عمرو بذلك إلى عمر، فضحك حين رآه، وقال: والذي نفسى بيده لكأنى أنظر إليك يا عمرو وإلى أصحابك حين أمرتهم بما أمرت به من حفر الخليج، فثقل ذلك عليهم، وقالوا: يدخل^(١) في هذا ضرر على أهل مصر، فنرى أن نعظم ذلك على أمير المؤمنين، ونقول له: إن هذا أمر لا يعتدل (ولا يكون)^(٢) ولا نجد إليه سبيلاً. فعجب عمرو من قول عمر، وقال: صدقت والله يا أمير المؤمنين، لقد كان الأمر على ما ذكرت. فقال له عمر: انطلق يا عمرو بعزيمة منى حتى تجد في ذلك، ولا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه. فانصرف عمرو، وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد، ثم احتفر الخليج الذى فى حاشية الفسطاط، الذى يقال له خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى القلزم، فلم يأت الحول حتى فرغ وجرت فيه السفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة. فنفذ الله بذلك أهل الحرمين، وسمى خليج أمير المؤمنين، ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد عمر بن عبد العزيز، ثم ضيعته الولاة بعد ذلك، فترك وغلب عليه الرمل فانقطع، فصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم.

قال ابن عبد الحكم ١: وحدثنا أخى عبد الحكم بن عبد الملك^(٣) بن عبد الحكم، حدثنا ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن محمد بن عبد الرحمن، حسبته عن عروة، أن عمر بن الخطاب قال لعمرو بن العاص حين قدم عليه: قد عرفت الذى أصاب العرب، وليس جند من الأجناد أرجى عندى أنه^(٤) يغيث الله بهم أهل الحجاز من

(١) زاد بعد هذه اللفظة فى ب، ج: على هذا.

(٢) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٣) كذا فى النسخ المخطوطة. وفى فتوح مصر: عبد الله. وهو الصواب.

(٤) كذا فى النسخ المخطوطة. وفى فتوح مصر: أن.

جندك، فإن استطعت أن تحتال لهم حيلة حتى يغيثهم الله. فقال عمرو: قد عرفت أنه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الإسلام، فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستد وتركته التجار، فإن شئت أن تحفره فتنشئ فيه سفنا تحمل فيه الطعام إلى الحجاز فعلته. قال عمر: نعم. فحفره عمرو وعالجه وجعل فيه السفن.

حدثنا 1 أبى، حدثنا سفيان بن عيينة، عن ابن ^(١) أبى نجيح، عن أبيه: أن رجلا أتى عمرو بن العاص من قبط مصر، فقال: أرأيت إن دللتك على مكان تجرى فيه السفن حتى تأتى ^(٢) إلى مكة والمدينة، أتضع عنى الجزية وعن أهل بيتي؟ قال: نعم. فكتب إلى عمر، فكتب إليه: أن افعل.

قال ابن زولاق: وليس بمصر خليج إسلامي غيره، قال: وكان خارج البحر يركبون فيه من ساحل تنيس، يسرون فيه ثم ينتقلون بالقلزم إلى المراكب الكبار.

قال المقرئ: وفي سنة ثمان وثلاثين وستمائة شرع السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب في بناء القنطرة التي على الخليج الكبير المجاور لبستان الخشاب، التي تعرف اليوم بقنطرة السد.

قال في موضع آخر: ولما تولى الظاهر بيبرس عمل القناطر المعروفة بقناطر السباع على الخليج الكبير.

وقال المعمار في سد الخليج:

سمعت	يوما	سد	مصر	يقل	النيل	وافى	زائرا	عندي
وكان	هذا	خبرا	صادقا	فرحت	أرويه	عن	السد	

(١) هذه اللفظة ليست في ب، جـ.

(٢) في ب، جـ: تنتهى.

1 فتوح مصر، ص ٢٨٧.

وقال صاحبنا الشهاب المنصوري في الخليج:

(جل بعينيك تلق فوق الخليج) ^(١) زيدا رايا كقطن حليج ^(٢)
أو شذورا من أبيض الغيم زانت زرقه في السماء ذات البروج
وقال أبو عبد الله بن الحجاج:

نثر الورد بالخليج وقد درجه بالهبوب مر الرياح
مثل درع الكمي مزقها الطع ن فسالت بها دماء الجراح
وقال الحسن بن علي بن وكيع 1:

يا حبذا والخليج مضطرب والريح تشنى ذوائب القصب
كأنه والرياح تعطفها صف قنا سندسية العذب
والحق في حلة ممسكة قد طرزتها البروق بالذهب

وقال البدر بن الحاجب:

لله در ^(٣) خليج تحت قنطرة بيضاء قد أحكمت عقدا على الطرق
كأنه وهو سار تحتها فرس يوم الرهان له سرج من الورق

وقال بهاء الدين أبو الحسن علي بن الساعاتي في يوم كسر الخليج:

إن يوم الخليج يوم من الحسد ن البديع المرئي والمسموع

(١) في ب: حلق فوق الخليج تلق بعينيك.

(٢) في الأصل، ب: خليج.

(٣) في ب، ج: حسن.

1 هو أبو محمد الحسن بن علي الضبي التنيسي، المعروف بابن وكيع، شاعر مجيد، أصله من بغداد، ومولده ووفاته في تنيس بمصر، كانت في لسانه عجمة. توفي سنة ٤٢٢ هـ.

كم لديه من ليث غاب صؤول ومهاة مثل الغزال المروع
وعلى السد عزه قبل أن يمـ ملكه ذلة المحب الخضوع
كسروا جسره هناك فحاكى كسر قلب يتلوه فيض الدموع
وقال بعضهم:

إن كان مد النيل قد سرکم وقد بلغت في الخليج المنى
فالنيل من بعدکم أدمعى نعم وما المفرد إلا أنا
وقال البرهان إبراهيم بن المزكى^(١) نصر بن ظافر بن هلال الحموى في (المفرد
المبشر بوفاء النيل):

الخير بالفرد^(٢) مجموع ووتره بالخصب مشفوع
وخفض عيش الناس من أجله به لواء الحمد مرفوع
مسند ما يرسل من ربه عنه حديث المحل مقطوع

أورد اليعمورى في تذكرته قال: وأنشدنى الأديب البارع ناصر الدين حسن بن
شاور بن طرخان بن النقيب الكنانى لنفسه:

ليهن أحبابى (نيلا وفي)^(٣) ومفردا وافى به مؤذنا
ما النيل إلا أدمعى بعدکم كلا ولا المفرد إلا أنا

(١) في ب، ج: الذكى.

(٢) في ب، ج: بالمفرد.

(٣) في ب: نيل ووفاء. وفي ج: نيل وفا.